دولة باكستان

فى مقال سابق تحدثنا عن الهند بين الوحدة والتقسيم [1] ، وذكرنا أن التفرقة فى حياة الهند لا ترجع إلى فعل المستعمرين وحده ، وإنما هى ترتبط بعوامل أعمق كثيراً مما يبدو فى ظاهر الأمر ؛ فهى تتصل بطبيعة البلاد الهندية وانقسامها أقساماً متباينة من حيث التوجيه الجغرافى ؛ وهى تتصل بتاريخ الهند العمرانى والاجتماعى والثقافى ، ذلك التاريخ الطويل الحافل بعوامل الخلف والتفرقة بين السلالات والجماعات والطوائف والديانات واللغات وغير ذلك ، مما يصعب معه الجمع بين سكان الهند فى أمة واحده . وغاية ما حدث فى تاريخ الهند الحديث أن الانجليز وجدوا فى تلك البلاد مجالا واسعاً مارسوا فيه سياسة التفرقة ، وحقلا خصباً استنبتوا فيه بذور الشقاق ، فكانوا مستعمرين مهرة عرفوا كيف يفيدون من الهند كيدان للاستعمار ، ووجهوا أسباب الشقاق إلى ما يخدم أغراض المستعمرين ، ولا يمهد السبيل إلى تقارب أو تساند بين جماعات الشعب وطوائفه فى تلك البلاد ، بل لا ينير السبيل أمام الهنود علهم أن يهتدوا إلى لون من ألوان الاتحاد السياسى بين أجزاء الهند ، اتحاداً لا يبعد أن يعوض تلك البلاد عن بعض ما فوتت عليها الظروف من وحدة قومية شاملة .

ونود فى هذا المقال أن نتتبع نشاة دولة باكستان ، إحدى الدولتين الكبريين اللتين انتهى إليهما تقسيم الهند ؛ وأن نحاول أن نكشف عما تستند إليه تلك الدولة الاسلامية من مقومات فى الطبيعة والتاريخ والاقتصاد والتكوين البشرى والاجتماعى ، كما نتتبع ما ينبغى أن تقوم عليه صلات تلك الدولة ببقية الهند ، بما فى ذلك الهند المتحدة أو هند باكستان ، والامارات الهندية

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٢٥ (أكتوبر ١٩٤٧) .

الكثيرة التى قد ينتهى بها الأمر إلى أن تختار الاستقلال على الاندماج فى إحدى دولتى الهند الكبيرتين .

وقد يكون من المفيد فى هذا المقام أن نرجع إلى التاريخ ، علّه أن يلقى شيئاً من الضوء على ما وراء فكرة الباكستان ودولتها الاسلامية فى الهند . ولقد دخل المسلمون أول ما دخلوا إلى الهند فى عهد الدولة الأموية ، فالدولة العباسية ؛ ولكن أولى الغزوات الواسعة النطاق إنما جاءت أيام فتوح محمود الغزنوى فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، حين قامت للمسلمين دولة فى شمال غرب الهند ؛ ثم اتسع نفوذ المسلمين ونطاق ملكهم ، حتى بسطوا نفوذهم على بعض جهات بنغالة فى شمال الهند الشرقى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ؛ وصحب ذلك انتشار الاسلام بين الهنود الأصليين . وكذلك امتدت سيطرة الحكام المسلمين إلى بعض جهات الهند الوسطى فى جوجرات والدكن وغيرهما ؛ وظهرت للمسلمين فى الهند دولة قوية فى القرون الوسطى ، لا سيما أيام المغول (موجال) ؛ وبقيت تلك الدولة قائمة حتى عام ١٨٥٧ ، عندما قضى عليها الانجليز ؛ فكانت آخر دولة هندية قاومت المستعمرين قبل أن يبسطوا سيطرتهم الكاملة على الهند . . . ولا يزال المسلمون يذكرون أنه كانت لهم دولة قائمة فى بلاد الهند قبل تسعين سنة .

و إلى جانب ذلك فان قصة استقرار الاسلام وانتشاره فى الهند لا تخلو من طرافة ، وهى ولا شك تفيد فى تفهم فكرة الباكستان وردها إلى أصولها الأولى فى الدين والاجتماع والسياسة . فالاسلام يختلف عن غيره من أديان فى أنه كثيراً ما يجمع بين أمور الدنيا وأمور الدين . وهو فى الهند بالذات قد احتفظ بصفته هذه إلى حد بعيد ، لا سيما فى الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من شبه الجزيرة ، حيث اتصل انتشار الدين بتوسع سلطة الحاكمين من المسلمين . ومع ذلك فلم تكن تلك قصة انتشار الاسلام فى الهند كلها؛ فهناك أمثلة معروفة تبرز أن دخول طوائف كبيرة من الهنود فى الاسلام لم يترتب على قهر أو قسر ، و إنما جاء نتيجة للنظام الاجتماعى والدينى السائد بين الهنادك ، وما انبنى عليه من وجود طوائف منبوذة ، وجدت فى اعتناق الاسلام مخرجاً مما هى فيه ، ووسيلة لأن ترفع مستواها الانسانى والاجتماعى بأن تدخل فى زمرة المسلمين الذين يتساوون فى العقيدة . وأغلب الظن أن انتشار الاسلام فى بلاد البنغال

جاء عن هذه السبيل ، فتخلصت به طوائف كثيرة كان البراهمة والهنادك يضعونها بحكم العقيدة فى مستوى اجتماعى حضيض . ويبدو أن هذه العناصر تعصبت للاسلام بعد أن اعتنقته أكثر مما تعصب له المسلمون الأصليون من الغزاة ؛ بل لعلها ان تكون قد ورثت فى دمائها روحاً هى أقرب إلى التشفى منها إلى التسامح الذى كان ينبغى أن يهديها إليه دينها الجديد . وقد يجد علماء النفس ، إن هم تعمقوا دراسة أسباب الشحناء والتنابذ بين طوائف الهند من المسلمين والهنادك ، أن روح الانتقام والتناحر قد تكون أقوى بين الهنود فى المناطق التى كان انتشار الاسلام فيها على حساب الديانات المحلية وبين طبقات المنبوذين وأشباههم منها فى المناطق التى جاء المسلمون فيها كمجرد غزاة فرضوا سلطانهم على الأهالى ولم ينشروا عقيدتهم بين المنبوذين منهم . وقد يكون خير مثال لذلك ما نراه من قلة المشاحنات الطائفية فى إمارة حيدر آباد ، حيث الطبقة الحاكمة من المسلمين والغالبية المحكومة من الهنادك ، وذلك كله بخلاف الحال فى مناطق البنغال حيث التشاحن والتناحر لا يزال على أشده .

وهناك منطقة أخرى انتشر فيها الاسلام ، وكثر التناحر بين المسلمين وغيرهم ، هى منطقة البنجاب ، وبعض جهات الشمال الغربى . ولكن التناحر هنا يمكن رده إلى عامل آخر غير ما نراه فى البنغال ؛ ذلك أن الاسلام فى البنغال لم يجد ديانة واحدة قوية متماسكة تستطيع أن تقف فى طريقه ، فاكتسح المنطقة اكتساحاً فى خلال خمسة قرون أو ستة بعد القرن الثانى عشر الميلادى . أما فى شمال الهند الغربى فان العقائد البراهمية كانت قد انتصرت على الديانة البوديه قبل وصول الاسلام ؛ فلما جاء المسلمون وجدوا أمامهم ديانة قويه منتصره ، وحياة روحية أبعد ما تكون عن الانحلال ؛ وبذلك كان على الاسلام أن يكافح من أجل المحافظة على كيانه وسلطانه ، حتى ليقال إن البنجاب لم تتحول إلى الاسلام فى نطاق واسع إلا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، وذلك رغم قربها من موطن الاسلام ورغم وقوعها فى طريق الغزاة من المسلمين . ولا تزال فى هذه المنطقة ، وفى شمال الهند الغربى أقليات قوية من غير المسلمين ؛ ففى مقاطعة البنجاب لا يزيد المسلمون على ٥٧ ٪ من السكان ، والباقون من الهنادك والسيخ . بل إن

إمارة كشمير ذاتها ، وبها كثرة من المسلمين تبلغ السبعين فى المائة ، لا يزال يحكمها أمراء من غير المسلمين .

وإلى جانب ذلك كله فان هناك مناطق بالهند جاء انتشار الاسلام إليها عن طريق آخر غير طريق الفتح أو الاعتناق تخلصاً من بعض الأوضاع الاجتماعية الهندية ؛ ففى غرب الهند وجنوبها ، وعلى ساحل ملابار بصفة خاصة ، جاء انتشار الاسلام عن طريق التجارة . فقد بدأ التجار العرب والفرس يستقرون على الساحل وفى بعض موانيه ابتداء من القرن الثامن الميلادى ؛ وكانت علاقة التجار المسلمين هناك حسنة ووثيقة بالحكام الهنادك ؛ فانتشر الاسلام عن طريق المخالطة والتبشير . ولولا وصول البرتغاليين بعد عهد الاكتشافات لشمل الاسلام نسبة عظمى من سكان ساحل ملابار .

من كل هذا يتبين أن انتشار الاسلام بين الهنود ، وفى مختلف أرجاء الهند كان ظاهرة معقدة ، اختلفت الدوافع إليها من إقليم إلى إقليم . ولعل فى ذلك ما يزيد من تعقد الأحوال فى الهند ؛ بل لعل فيه ما يعكس صورة من اختلاط الأمور فى هذا العالم الهندى ، حيث تتعدد الأوضاع وتتغاير الصور وتختلف الأسباب والمظاهر ، حتى فى حالة الديانة الواحدة ، كما هى الحال بين المسلمين .

فاذا ما انتقلنا بعد هذه العجالة التاريخية إلى دولة باكستان ونشأة فكرتها أو بعث فكرة الدولة الاسلامية الحديثة فى الهند ، فاننا نلحظ أموراً جوهرية : أولها أن هذه الفكرة إنما نبتت فى إقليم شمال الهند الغربى ، وهو الوطن الروحى والعسكرى الأول بالنسبة للاسلام فى الهند ، بل هو الاقليم الذى احتك فيه الاسلام كما ذكرنا بعقائد هندية قوية مزدهرة ، فاشتبك بها فى صراع قوى لم تكن له فيه الغلبة إلا بعد كفاح طويل . ثم إن هذا الاقليم فى الوقت ذاته كان مدخلا قديماً لعناصر متتابعة جاءت إلى الهند من داخلية آسيا فى موجات متتالية ، لم تكن موجة المسلمين إلا أخراها . ولذلك فقد عاشت فى هذا القسم من الهند سلالات كثيرة من ذرية الفاتحين ؛ وهؤلاء دخلوا فى الاسلام ، أو دخلت كثرتهم فيه ، بالتدريج ؛ فأصبح المسلمون هنا ذوى تكوين جنسى ميزهم على غيرهم من سكان شمال الهند الشرقى مثلا ، حيث انزوت العناصر المستضعفة أمام موجات الغزاة ؛ أو من سكان جنوب الهند ، حيث طوردت أضعف العناصر وأقدمها وأبعدها عن التجديد والاحتكاك الثقافى بالعالم

الخارجى . لذلك كله لم يكن غريباً أن تنبعث فكرة باكستان كرسالة دينية وسياسية فى هذا الاقليم الشمالى الغربى من أقاليم الهند . . . بل قد يكون انبعاثها فى هذا الاقليم قبل غيره دليلا من دلائل القوة التى أخرجت الفكرة من حيز الخيال إلى حيز الممكن ، ثم لم تلبث أن جعلت منها حقيقة واقعة ، فى وقت لم يكن فيه كثير من الناس يعتقدون إمكان تحقق فكرة باكستان على هذا النحو السريع !

وثانى هذه الأمور التى يجب أن نلحظها هو أن فكرة باكستان ، كغيرها من الأفكار التى تظهر فى بلاد عريقة فى المدنية وحافلة بأحداث التاريخ كبلاد الهند ، إنما سبقت تحقيقها مرحلة من الفكر والفلسفة السياسية لدى نفر من مفكرى المسلمين فى الهند . فهى لم تنشأ كحركة شعبية ، وإنما بدأت كفكرة فلسفية سياسية ، لبى الشعب المنادى بها لأنها مست حياته الروحية وحركت مشاعره العاطفية ، فاستجاب لها كما تستجيب الشعوب لما يهديها إليه قادة الفكر . وقد استندت فكرة باكستان كما نعرفها أول ما استندت إليه إلى فلسفة الشاعر الهندى محمد إقبال ؛ فقد أصدر فى خلال الحرب العالمية الأولى ديواناً يقوم الشعر فيه على فلسفة القوة ، وبعث بذلك فى نفوس المسلمين من الهنود رغبة ملحة فى أن يستعيدوا مجدهم الفائت وقوتهم الضائعة ، ودفعهم إلى أن يؤمنوا بأنه لا سبيل إلى تحقيق الأحلام إلا إذا استيقظ النائم وسعى القائم ، وحرج الناس من حيز الفكر إلى حيز العمل . . . والعمل القوى الفعال ! ثم تبع إقبال الزعيم رحمت على ، فأعرب بطريقة أوضح عن آمال المسلمين فى الهند وأمانيهم ، وقال فى عام ١٩٣٣ بضرورة إنشاء دولة إسلامية كبرى تسمى « باكستان » وتتألف من ولايات خمس فى شمال الهند الغربى هى بنجاب والولاية الشمالية الغربية (ويسمى سكانها أنغان) وكشمير (وهى إمارة) والسند وبلوخستان (١) . كما يجوز أن تنشأ على نمطها أو أن تنضم إليها دولة « بانجسلام » وهى بنغالة وأسام ودولة « عماستان » وهى حيدر آباد والدكن ؛ ومع ذلك فان آراء رحمت على كان ينقصها التبلور والتحديد العملى من بعض

(١) إذا أخذنا الأحرف الأولى من أسماء بنجاب وافغان وكشمير وسند والأحرف الثلاثة الأخيرة من بلوخستان خرجنا بلفظ « باكستان » . ومن الطريف أن هذا اللفظ يعنى باللغة الأوردية والفارسية « أرض الطاهرين » .

الوجوه ؛ فهو مثلا قد حاول أن يقرن ولو من بعيد بين المناطق التى تكون كثرتها من المسلمين ، كما هى حال باكستان وشرق البنغال وأسام ، وتلك التى تحكمها أقلية إسلامية ولكن كثرة أهلها من الهنادك ، مثل إمارة حيدر آباد ولذلك كله بدت آراؤه بعيدة المرام عن بعض المفكرين من المسلمين ؛ بل إن المسلمين فى جملتهم بقوا فترة من الزمن يزاوجون بين جهودهم وأمانيهم وبين جهود بقية الهنادك وأمانيهم فى مدافعة الانجليز ؛ وجاء وقت اتفقت فيه الرابطة الاسلامية ، وهى تمثل كثرة المسلمين ، مع حزب المؤتمر ، وكثرته من الهنادك . . . اتفقا على الكفاح المشترك ضد الانجليز ، والمطالبة باستقلال الهند عامة ، دون نظر إلى تقسيمها على أساس طائفى أو سياسى . حتى إذا ما جاء دستور الهند فى عام ١٩٣٥ ، وضع على أساس ديمقراطى فى ظاهره ، ولكنه ينتهى آخر الأمر بأن يبقى المسلمون فى الهند قلة تتحكم فيها كثرة دائمة من الهنادك . فالمسلمون وإن كانوا فى الهند كلها يزيدون على التسعين مليوناً ، فان الهنادك بمختلف طوائفهم يزيدون على ثلاثة أمثال ذلك العدد . فاذا فرض أن استقلت الهند الموحدة بأمورها فسيبقى المسلمون على الدوام قلة فى المجالس النيابية ، وفى الحكومة المركزية . وإن كانت لهم الكثرة فى بعض الحكومات المحلية ، وحتى إذا اقتصر الاستقلال على الهند البريطانية دون الامارات فسيكون مجموع المسلمين فى الولايات أقل من ثمانين مليوناً يقابلهم أكثر من مائتى مليون من غير المسلمين (١) ؛ وفى ذلك ما يهدد كيانهم ، ويبدلهم من استبداد الطغاة من الانجليز تحكم الكثرة الساحقة من الهنادك . لذلك كله لاح الخلاف بين الرابطة الاسلامية وحزب المؤتمر منذ عام ١٩٣٥ ؛ ثم ازدادت فى عام ١٩٣٧ عندما شرع فى تطبيق قانون استقلال ولايات الهند البريطانية . ثم جاءت الحرب فاختفى الخلاف ، ولكن ليعود فيظهر ويتجدد فى عام ١٩٤٠ ، عندما أعلنت الرابطة الاسلامية فى مؤتمر لاهور عزمها على الاستمساك إلى النهاية بميثاق باكستان ، على أن تشمل المناطق التى تقطنها كثرة من المسلمين فى شمال الهند الغربى وشمالها الشرقى . وما زالت الرابطة بزعامة رئيسها محمد على

---

(١) كان مقدراً أن يكون للمسلمين ٨٠ نائباً فى الجمعية التأسيسية الأخيرة من مجموع أعضائها ويبلغون ٣٨٩ عضواً . ولذلك قاطعت الرابطة الاسلامية تلك الجمعية .

جنة تكافح وتناضل حتى فازت باقرار ميثاقها ، وتقسيم الهند البريطانية إلى باكستان واتحاد الهند أو هندستان على نحو ما هو معروف . وتم ذلك رسميا عندما تخلت بريطانيا عن سلطاتها المحلية إلى الدولتين الجديدتين فى ١٥ أغسطس من هذا العام .

وينبغى أن يكون ملحوظاً أن مشروع التقسيم الجديد (راجع الخريطة) لا يشمل الهند كلها ؛ وإنما يشمل ما يعرف باسم الهند البريطانية ، وهى الخاضعة للحكم البريطانى المباشر . أما « إمارات » الهند (ولكل منها أمير يتمتع بالحكم الاسمى على الأقل) فقد تركتها بريطانيا عن قصد حرة تختار بين

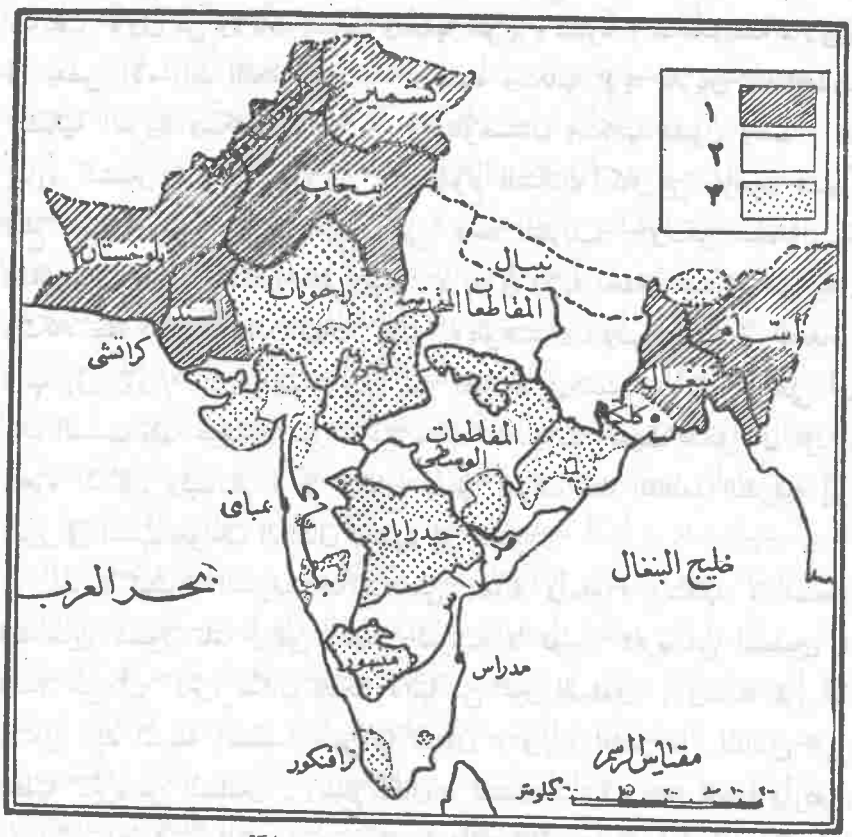

خريطة تبين تقسيم الهند على النحو الآتى :

(١) باكستان [بما فيها إمارة كشمير] . — (٢) ولايات اتحاد الهند أو هندستان [وينتظر أن تنضم إليها بعض الامارات] . — (٣) الامارات الهندية ذات الاستقلال الاسمى ، ولها الحق فى الانضمام إلى إحدى الدولتين الهنديتين أو الاحتفاظ باستقلالها .

الانضمام إلى احدى الدولتين الهنديتين أو الاحتفاظ باستقلالها والارتباط ببريطانيا بمعاهدة إن هى أرادت ذلك . . . وعدد الامارات فى الهند كبير ، ولكن من بينها عدد قليل من الامارات الكبرى ذات الشأن ؛ ومنها إمارة كشمير وهى قد اتحدت مع باكستان ، وإمارة حيدر آباد وقد اختار حاكمها المسلم أن يبقى على الحياد فيحتفظ باستقلاله ، ثم ولايات كبيرة أخرى مثل ترافنكور وغيرها ، مما لا ينتظر أن يبت فى أمره إلا بعد حين .

وباكستان فى صورتها الجديدة تشمل منطقتين منفصلتين إحداهما عن الأخرى . تقع الأولى فى شمال الهند الغربى ؛ وتقع الثانية فى شمالها الشرقى . وتأتلف الأولى من ولايات بنجاب وسكانها نحو ٢٨ مليوناً (ما عدا ستة ملايين فى بعض الامارات الملحقة بها) ، والسند وسكانها ٤ ملايين ، والحدود الشمالية الغربية وسكانها ٣ ملايين ، وبلوخستان وسكانها مليون واحد ، ثم إمارة كشمير وسكانها ٤ ملايين ؛ فمجموع السكان أكثر من أربعين مليوناً تبلغ نسبة المسلمين بينهم ٧٠٪ على وجه التقريب . ولكن هذه النسبة تختلف من مكان إلى مكان ؛ فهى تبلغ ٩٠٪ فى ولاية الحدود الشمالية الغربية . وتكاد تبلغ ذلك فى بعض جهات كشمير وبلوخستان ؛ ولكنها تقل فى البنجاب ذاتها إلى ٥٧٪ (يقابلهم ٢٧٪ من الهندك فى تلك الولاية) . على أن هذه النسب كلها عرضة للتغيير لا سيما مقاطعة البنجاب ، حيث يحتمل أن تؤدى هجرة السكان وتبادلهم ، أو اقتطاع بعض أطراف تلك المقاطعة الشرقية إلى تغيير فى نسب طوائف السكان بعضهم إلى بعض .

أما باكستان الشرقية فتأتلف من بنغالة وأسام ؛ ولكنها لا تشمل المقاطعتين شمولا تاما . ففى بنغالة الغربية لا توجد كثرة من المسلمين ، فضلا عن أن كثرة سكان كلكتا ذاتها من غير المسلمين . ولذلك تقرر ألا تدخل تلك المدينة العظيمة ضمن باكستان ؛ وإنما اقتصر على المناطق التى تقطنها كثرة من المسلمين . ويقدر سكان باكستان الشرقية بنحو خمسة وأربعين مليوناً ، تناهز نسبة المسلمين بينهم السبعين فى المائة . فاذا ما ضممنا باكستان الشرقية إلى باكستان الغربية أصبحت جملة سكان الدولة الجديدة أكثر من ثمانين مليوناً ، بينهم نحو الستين مليوناً من المسلمين .

فدولة باكستان إذن يمكن اعتبارها — من حيث عدد السكان — دولة

كبرى . وقد كانت حجة المسلمين دائماً أنهم وإن كانوا يمثلون أقلية فى داخل الهند كلها ، فان عددهم الكبير ، وما يحتلونه من مساحة واسعة تبلغ زهاء نصف المليون من الأميال المربعة (هى مساحة شطرى باكستان) ، كل ذلك مما يسوغ قيام دولة قائمة بذاتها . وتلك ولا شك حجة لها قيمتها ووزنها ، لا سيما أننا نجد من تاريخ الاسلام والمسلمين فى الهند ما يسوغ احتفاظهم بكيانهم السياسى والقومى الخاص . وفوق ذلك فان دولة باكستان ستكون بتكوينها الجديد أكبر دولة إسلامية فى الشرق كله . ولا شك أن قيامها سيضيف قوة هائلة إلى ما يمكن أن يكون للعالم الاسلامى من شأن فى المستقبل . ومع ذلك كله فلا ينبغى أن تعمينا هذه الناحية عن استجلاء ما يكتنف قيام الدولة الجديدة من صعوبات ، بعضها طارئ سيزول مع الزمن ، وبعضها أصيل لا بد أن يبقى على الأيام . وخير لنا أن نواجه الحقائق كما هى ، وأن نكشف عن الصعوبات فى وضعها الصحيح من أن نغض الطرف عما هناك من عقبات ونقائص .

وأولى هذه العقبات والنقائص ، وربما كانت أهمها ، أن دولة باكستان تنقسم قسمين منشطرين أحدهما فى الغرب والآخر فى الشرق ، وتفصل بينهما مساحة كبيرة من أرض هندستان والامارات الهندية المستقلة . وسيترتب على ذلك مشكلات كثيرة ، هى أظهر من أن تحتاج إلى تبيان ، وليس أقلها مشكلات الاتصال لاقتصادى والدفاع العسكرى ضد أخطار ، بعضها خارجى ، وبعضها الآخر ربما أتى يوماً من داخل الهند ذاتها . وستبقى باكستان منشطرة شطرين ليس بينهما « ممر » أو « دهليز » هندى ، ولا اتصال مباشر إلا بالبحر حول الهند كلها . وقد تكون باكستان قوية متماسكة من حيث المبدأ والفكرة والروح والعصبية ، ولكن جيشها وأسطولها سيبقيان على الدوام فى معسكرين متباعدين ، كما أن مواصلاتها ستبقى فى اتجاهين مختلفين ؛ ولن يكون لها مركز اقتصادى موحد ، بل إن تكوينها الاقتصادى ذاته سيكون بعيداً عن الكمال ؛ فهى غنية بمواردها وحاصلاتها الزراعية من القمح فى الغرب والأرز والقنب فى الشرق ، ولكنها أفقر من هندستان فى موارد القوة من الفحم ومساقط المياه وأدوات الصناعة الحديثة ، مما يتركز فى السواحل الغربية عند بمباى أو فى منطقة أوريسا عند جنوب البنغال الغربى . وفضلا عن ذلك فان إقليم بنغالة ذاته قد اقتطعت عاصمته وسوقه الكبرى كلكتا ، فأضيفت إلى اتحاد الهند (هندستان)

على حين بقيت أراضيه الشرقية ومزارعه الواسعة ضمن باكستان . فهذه المشكلات الاقتصادية المتنوعة تضاعف ولا شك من آثار المشكلة العسكرية فى الدفاع عن بلد مشطور كباكستان .

وستواجه باكستان نوعاً ثالثاً من المشكلات (غير المشكلات الاقتصادية والعسكرية) هو مشكل الأقليات . فالمسلمون فى باكستان لا يمثلون أكثر من سبعين فى المائة ، وبقية السكان من الهندك والسيخ وغيرهم . ولا يمكن أن نتصور أن يكون من اليسور نقل السكان وتبادلهم بين هندستان وباكستان بحيث نخرج من الأخيرة غير المسلمين ، وننقل إليها بقية المسلمين من الهند . فالمصالح الاقتصادية والظروف المادية قد لا تجعل ذلك كله فى حيز الامكان إلا بقدر محدود . بل إننا قد رأينا أن بالهند جهات بها كثرة هندوكية تحكمها طبقة مسلمة ، وجهات أخرى بها كثرة مسلمة تحكمها طبقة من الهندك . ولقد جربت عملية نقل السكان وتبادلهم فى نطاق ضيق ، فى حدود مئات الآلاف ، فى بعض جهات أوربا (بين اليونان وتركيا مثلا) ؛ ولكن التبادل فى نطاق عشرات الملايين ، كما هو مطلوب فى الهند ، أمر أخطر كثيراً وأصعب كثيراً ، لا سيما فى بلد تسود فيه الحزازات والمشاحنات ، ويصعب فيه الاتصال ويشق التنظيم . وقد لا تطول التجربة باخواننا الهنود فى كل من باكستان وهندستان قبل أن يستبينوا أن تبادل السكان فى الهند ليس مما يمكن تحقيقه إلا فى نطاق محدود ، وأن الصالح المتبادل يقضى بأن تحسن الأغلبية معاملة الأقلية بدلا من أن تحاول التخلص منها . . . والمستقبل وحده ، وما قد يأتى من دروس ، كفيل بأن يبرز لأبناء الهند حكمة التكافل وقيمة التكامل بين الأغلبية والأقلية فى كيان الأمم !

ونستطيع أن ندرك ضرورة التعاون بين الدولتين الحديثتين وما يقع بينهما من إمارات مستقلة إذا ما تذكرنا مرة أخرى (راجع الخريطة) أن مشروع التقسيم الجديد لا يقسم الهند إلى دولتين اثنتين ؛ وإنما يترك المجال أمام عدد كبيرمن الامارات لتعلن استقلالها إن هى أرادت ذلك ، ولترتبط ببريطانيا ارتباطا اقتصاديا أو عسكرياً قد يهدد من قريب أو بعيد ، ما حصلت عليه الهند من ميزة الاستقلال . وقد يكون خروج الانجليز من الهند أمراً نهائيا ؛ ولكنه قد يكون موقوتاً إلى حين ، أو إلى أن يجد البريطانيون ما يسوغ التدخل ولو على

نحو غير مباشر ، وفي صورة جديدة تختلف عن تدخلهم السابق . ولكننا حتى إن افترضنا أحسن الفروض فلن نستطيع أن نستبعد من الحساب أن باكستان ستشعر دائماً أنها دولة كبيرة فى حد ذاتها ، ولكنها على كل حال أصغر كثيراً من هندستان التى قد يبلغ عدد سكانها فى النهاية ما يقرب من ثلاثة أمثال عدد سكان باكستان . وليس عدد السكان كل شئ فى حياة الأمم بالطبع ، ولكنه قد يكون عامل إغراء بالضعف ؛ وقد تلتمس باكستان أن تستعيض عن ذلك باكتساب شعور بقية المسلمين فى هندستان إلى جانب إخوانهم فى باكستان ؛ إذ قد تحاول الاستعاضة عنه بما يضفى المسلمون فى غرب آسيا وجنوبها الشرقى على الدولة الناشئة من شعور بالعطف . ولكن الخير فى رأينا أن يكون رجال باكستان عمليين إلى القدر الذى تفرضه ظروف دولتهم الجديدة ، وما يكتنف قيامها من صعوبات لا يزالون من معالجتها فى أول الطريق وعند أسفل الدرج . وليس من شك فى أن من الخير للهند بشطريها أو أشطرها العديدة ألا تؤدى القسمة السياسية إلى قسمة فى الميول والاتجاهات الدولية ، ولا إلى إغراق فى المنازعات الطائفية التى تفتح الطريق إلى المنازعات الدولية . بل خير للهند فى مجموعها وللشرق فى جملته أن يحتفظ أبناء الهند جميعاً بنوع من الوحدة فى الغاية السياسية التى ترمى إلى التحرر من الماضى القريب ومن أعقاب الاستعمار ، فيدركوا أن تقسيم الهند إن كان مما يتسق مع مقتضيات البيئة الطبيعية ، ويتفق وتقاليد التاريخ البشرى ، كما يرضى نزعة العصبية الدينية والقومية فى تلك البلاد ، فان مصالح المادة تقتضى أن تحتفظ أجزاء الهند بنوع من الرباط فيما بينها ؛ فيقوم فى الهند على الزمن اتحاد أم هندية ، قد لا نستطيع أن نرسم معالمه الآن ، ولكنه يكون وقاء لبلاد الهند من أن تتنازعها عوامل التمزق ، فتضيع ريح أهلها من الهنادك والمسلمين ، ولا يفيد من ذلك غير أولئك الذين يعرفون كيف يفيدون من الظروف !

الهند بلاد فسيحة كما ذكرنا فى مطلع مقالنا السابق ، تناهز مساحتها ثلث أوربا ، ويقارب عدد سكانها سكان تلك القارة ، ثم إنها بلاد عريقة فى المدنية ، بدونها لا تكتمل للشرق صورته المعروفة . ولقد كانت رغم انقساماتها الكثيرة مركزاً عظيما من مراكز الثقافة البشرية ، ومهداً عريقاً من مهاد

الفكر الفلسفى ؛ نبتت فيها بعض العقائد والديانات التى انتشرت نحو الشمال ونحو الشرق ، والتى حمل أنصارها رسالتهم إلى العالم الخارجى بالبر والبحر ، كما ظهرت فيها بعض ألوان الفكر والفلسفة التى نقل عنها الشرقيون فى غرب آسيا وشرقها على حد سواء . وهى إلى ذلك كله تعتبر قلب الشرق الآسيوى إلى يومنا هذا . وإنه لمن خير الانسانية جميعاً أن تحتفظ تلك البلاد العريقة بطابعها الهندى و بمكانتها التاريخية ، فلا تحول الانقسامات والحزازات وما قد تجر إليه من تناحر واضطراب دون أن تبقى الهند وحضارتها على الزمن ، ودون أن يستطيع أبناؤها — على مختلف طوائفهم — أن يساهموا فى حياة البشر وفكرهم فى قابل الأيام بمثل ما ساهم به أسلافهم فى ماضيهم الحافل العتيد .

سليمان مرزبان